تطوير آليات تعليمية اللغة العربية

د/ عبد الناصر بوعلي
جامعة تلمسان - الجزائر

Depuis le temps les promoteurs de l'école algérienne et dés l'indépendance ont adoptéleurs efforts pour la recherche et l'exploration et l'innovation pour la fondation d'une école de nature algérienne et de langue arabe. La clé de voûte de la réussite de ce projet consister de grands efforts pour élargir l'espace d'enseignement dans toutes les régions du pays. Chaque enfant en Algérie doit bénéficier d'une place pédagogique, et cette expansion quantitative a conduit à l'émergence d'un grand nombre de lacunes dans la nature des composants et des manuels scolaires et des programmes d'enseignement.

لقد وقّف رواد المدرسة الجزائرية الأوائل جهودهم منذ الإستقلال على البحث والتنقيب والإجتهاد من أجل إنشاء مدرسة جزائرية الطابع عربية اللسان، وبذلوا جهودًا كبيرة من أجل توسيع دائرة التعليم وتمكنوا من تغطية جميع أنحاء الوطن، فكل طفل جزائري طلعت عليه الشمس إلا وقد وجد مقعده في المدرسة، وهذا التوسع الكمي أدى إلى بروز العديد من النقائص في طبيعة المكونين والكتاب المدرسي والمناهج التربوية، وهياكل الإستقبال، وقد ورث المهتمون الرسميون منظومة تربوية كانت تطبق إبان الإستعمار وما خلفته المدرسة البادسية الحرة التي كانت تحرص على تعليم العربية وأمور الدين الإسلامي، وتمثّل الإجتهاد القائم آنذاك في إبعاد المنظومة الموروثة بدعوى أنها من بقايا الإستعمار وهكذا تم إستيراد إجتهادات من خارج الوطن، وكلما كانت تفشل منظومة تستبدل بأخرى مستوردة، وغدت الإجتهادات الأجنبية تخلُف بَعضَها البعض.

إن هذه الوضعية أفرزت تدني في مستوى اللغة العربية فعمد المسؤولون إلى معالجته بوصفات جاهزة القوالب أصبحت تتكرر على رأس كل مرحلة حتى غدا الأساتذة يتحرجون في تفسير وفهم مصطلحاتها وطال أمد أوْجاعنا فتوهم الكثيرون في العربية العجز عن مواكبة العصر ولم تزدنا العيادات الأجنبية إلا التقهقر والرطانة.

إن وضع اللغة العربية في الجزائر يقتضي أخذ الأمر بجدية تامة وفطانة تشبه إلى حد بعيد فطانة الخليل وسيبويه والكسائي وغيرهم من السَّلف الصالح الذين أدركوا خطورة اللحن آنذاك على العربية وشمروا على سواعدهم وإنتجوا للعربية ما يصونها ويخلدها عبر التاريخ فجاؤوا بنحو عربي المنبت وعربي المنهج حارت في أمره الأمم وإنبهرت فيه الأجيال، ومازال النحو العربي شامخا أصيلا يصون العربية وهو في حاجة اليوم إلى تبسيط مفاهيمه وتحديثها.

1- واقع تدريس اللغة العربية في الجزائر:

نال تدريس اللغة العربية في الجزائر إهتماما وافراً في البرامج التعليمية منذ الإستقلال وتضاعفت المجهودات مع بدء التطبيق الرسمي لإقرار مدرسة جزائرية الطابع عربية اللسان، إلا أن تلك المجهودات التي بذلت والإمكانات التي أنفقت كانت تنتابها نقائص في المناهج والطرائق وتكوين المؤطرين، وإتسمت الإصلاحات التربوية بالسطحية، وخلت من التعمق

في طرح المشكل القائم وهو أن وضعية اللغة العربية في بلدنا ليست على خير وإن تدريسها يعرف تدهورا كبيرا، وقد أدى هذا الشعور إلى المبادرة من حين لآخر للقيام بتعديلات وإصلاحات كان الهدف منها معالجة النقائص والمساهمة في إيجاد الحلول ومهما بلغت هذه المجهودات فإن واقع المنظومة التربوية يفرض مواصلة البحث والإجتهاد من أجل الوصول إلى تسطير منظومة تربوية تنطلق من مرجعية فلسفية للأمة تهدف إلى تحديد الأهداف المتوخاة تحقيقها، ولعل من أبرز هذه الأهداف تعليم العربية للناشئة وإحلالها المكانة اللائقة التي تؤهلها للأخذ بالمجتمع نحو التطور الذي يستجيب للمتغيرات الجديدة على المستوى الإقليمي والعالمي.

إن تجربتنا مع الاصلاحات التي كانت ومازالت تنزل إلى القواعد لتطبيقها وما كنا يومًا فاعلين في نصوصها جعلتنا نعتقد أن ضعف نجاعتها كان بسبب عدم إرتباط هذه المنظومات التربوية بالأطر الثقافية للأمة وبالأوضاع النفسية والذات الحضارية للمجتمع ولم تكن تلبي الحاجات الإجتماعية والاقتصادية للأمة، ولم تدرس بعمق على مستوى الجهات العليا المسؤولة على سياسة الدولة.

لقد حدثنا أكثر من واحد عن طبيعة الورشات التي كانت تجمع بعضا ممن إختيروا لتحضير وتسطير برامج التعليم وإختيار طرائقه وتحديد مناهجه عن اللامبالاة وقلة الجدية وعدم تقدير المسؤولية المنوطة على عاتقهم بالإضافة إلى قلة النظر، ونقص التجربة وضيق الاطلاع والدعوة إلى التسرع كل هاته أدت إلى ظهور الخلل في الإصلاحات المقدمة.

لقد دفعت اللغة العربية ثمنا باهضا نتيجة هذه الممارسات وتم التراجع حتى عن المنجزات التي قامت على أكتاف المخلصين لهذه الأمة في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي والتي كانت تتمثل في سياسة التعريب والتي حققت العديد من المكتسبات رغم أن هناك ما يقال فيها.

2- أسباب تدني المستوى اللغوي في بلدنا:

إن التفكير في مشكلة تدني المستوى اللُّغوي وعدم بلوغ الأهداف التي كنا نطمح إلى تحقيقها يؤدي بنا إلى الوقوف على جملة من الأسباب المتعددة لا ترجع بالضرورة إلى التقصير فقط وإنما ترتبط بعوامل كان ينبغي التكهن بها لو توفر للأمة من أبنائها الذين يحسبون نتائج تطور الأوضاع سلبًا وإيجابًا، ويمكننا ذكر بعض هذه الأسباب فيما يأتي:

1- إنتشار العامية وآثارها السلبية على إكتساب المهارات اللغوية فما يبنيه مدرس اللغة العربية يتعرض للهدم والتشويه بسبب شيوع العامية في مرافق الحياة؛ البيت، والشارع والأماكن العمومية وحتى وسائل الإعلام، ومن هنا نجد التلميذ لا يستمع إلى العربية الفصيحة إلا في حصص التعليم لمادة اللغة العربية، ومعلوم أن إكتساب اللغة يتم أولا عن طريق السماع وقد أشاد إبن خلدون بطريقة التعليم بالمشافهة فقال: «والسمع أبو الملكات»[1]، يضاف إلى ذلك أن العديد من المعلمين والأساتذة في المواد التربوية الأخرى يستخدمون الدارجة في شروحهم ونقاشهم مع طلبتهم، وهذا ما أغفلته المنظومة التربوية في الجزائر بينما تنبه له غيرنا، «فالمجلس القومي لمدرسي الإنجليزية في بريطانيا أصدر قرارًا يقضي بأن كل من يود أن يكون مدرسًا سواءٌ كان مدرسًا للفيزياء أو الكيمياء أو الرياضيات أو الاجتماع... الخ أن يكون مدرسًا للغة الأم أولاً»[2].

2- قصور الطرائق التربوية التي نتبعها في تدريس اللغة، فمعلوم أن اللغة تكتسب بالمران والممارسة والتكرار والاستخدام المستمر والسماع، والتلقين وحده يجعل الطالب سلبيا سرعان ينتابه الملل ويصيبه التعب فيحدث عنده النفور.

3- عدم التشجيع على التعلم الذاتي الذي يساهم في اِستخدام اللّغة وذلك عن طريق المطالعة الحرة التي تكسبالقارئ ثروة لغوية وتمكنه من الأساليب العربية الجميلة التي توسع آفاقه اللغوية وتنمي خبراته وقدراته على الكتابة والإنشاء والنطق السليم.

4- ضعف التكوين العلمي والتربوي لمدرسي اللغة العربية، فالأستاذ المكون جيدا يتمكن من التأثير في تلامذته، وقد وضع الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح شروطاً ثلاثة ينبغي أن يلمَّ بها مدرس اللغة العربية وهي:

1/ الملكة اللغوية.

2/ ملكة تعليم اللغة وهي الهدف الأسمى بالنسبة إليه.

3/ أدنى كمية من المعلومات النظرية في علم اللسان.[3]

وقد شرح الأستاذ صالح بلعيد هذه الشروط بإسهاب وأشار أننا نجدها غائبة عند المعلم لعوامل كثيرة أهمها على الإطلاق عدم حصول المعلم على الملكة اللغوية الكافية في صغره كي يباشرها بسهولة في كبره ولأنه لم يقع الاهتمام بالطفل الجزائري الذي يواجه واجهة لغوية خاصة[4]، ومن جانب آخر نجد العديد من الأوساط تحمل المعلم أسباب تدني المستوى اللغوي للتلاميذ فالدكتور المهدي المخزومي يرى أن المعلم يتحمل أوزار هذا الضعف فيقول: «وما ضعف الطلبة حتى المتخرجين منهم في أن يفهموا نصًّا أدبيًا أو لغويًا وفي أن يؤلفوا جملة عربية سليمة إلاّ لأن القائمين على تدريس النحو سلفيون مشدودون إلى القديم لأنه قديم»[5].

5- سوء اِختيار المادة اللغوية والأدبية الملائمة لمستوى وقدرات الطفل العقلية والوجدانية، فالنصوص المختارة والعديد منهالا توصل التلميذ بنتاج حاضره ولا تربطه بتراثه ولا تظهر في حياته، الأمر الذي يؤدي إلى النفور منها فلا يتمكن الطلاب من اِستساغتها وتذوقها وهذا يؤدي إلى الملل الفوري وعدم الإقبال على قراءتها ومحاولة فهمها.

6- تفشي العامية في التدريس فقد دخل في عداد هيئة التدريس أناس تسلموا كراسي التعليم وهم لا يتقنون العربية ولا يحسنون الحديث بالفصحى الأمر الذي فسح المجال للعامية فاِنسابت إلى العديد من الدروس وراح هؤلاء يشرحون العلوم والمعارف للتلاميذ باللسان الدارج وقد تفشى هذا الأمر كثيرا واِقتحم حتى الجامعات وزهد كثير من القائمين على اللغة وضعف التنبيه لهذا الخطر فساد بين الطلاب وأساتذتهم وغدا أمرًا واقعًا.

3- الانطلاق الصحيح في تعليم اللغة العربية:

الملاحظ عند الدول المتقدمة عنايتهم الكبيرة بأطفالهم تربية وتعليمًا ورعاية في جميع مناحي نموهم العقلي والوجداني واللغوي والصحي، فأقاموا لهم لذلك مرافق متنوعة من مدارس وحدائق للتسلية واللعب ورياض يشرف عليها معلمات مهذبات متخلقات يسهرن على تربيتهم وتسليتهم وتعليمهم، وتعمل هذه الرياض والمراكز بطريقة عالية التنظيم تشرف عليها جهات رسمية تراقب نشاطها بِاستمرار، وقد أكد علماء التربية أن مرحلة التحضيري والمرحلة الابتدائية تعد حجر

الأساس في بناء العملية التعليمية إذ عليها تتوقف تنمية العديد من المهارات اللازمة لأعداد المواطن للحياة والتفاعل مع البيئة التي تحيط به.

إن هذا الاهتمام بمراحل التعليم الأولى يعد الحجر الأساس في تكوين مواطن الغد ورجال المستقبل الذين يحملون على عاتقهم بناء المجتمع وإقامة صرح الأمة والحفاظ على الهوية، ويرى المربون أن اللغة تكتسب في هذه المرحلة وتغرس في النفوس وتتطبع عليها الألسن وتصير ملكة، وقد كان العرب يرسلون صغارهم إلى البوادي لتعلم الفصحى ولتصقل ألسنتهم على السليقة وكتب السيرة النبوية تتحدث عن تنشئه الرسول صلى الله عليه وسلم على الفصاحة في بادية بني سعد. «ومما لا شك فيه أن اللغة العربية في المرحلة الابتدائية ليست مادة دراسية فحسب ولكنها بالإضافة إلى ذلك سبيل التلميذ لمعرفة المواد الدراسية الاخرى من تاريخ وجغرافية وعلوم ورياضيات وتربية»[6].

لقد امتلأت بطون الكتب بالآراء والمقترحات التي تتحدث عن تعليم اللغات وإقترحت في ذلك طرائق متنوعة يعتمد بعضها على الوسائل السمعية البصرية وتهدف إلى تحقيق السرعة في تعلم اللغة، وإستفادة العربية من هذه الطرائق للناطقين بها ولغير الناطقين بها، ومع ما حققته من نتائج فإن الواقع يبرز النقص الملحوظ في الوصول إلى الغايات المنشودة.

لذلك بات من الواجب القيام بالمزيد من الاجتهاد حتى تكون في مستوى الطموح المنشود، وإعتمادًا على ما سبق تحليله نورد بعضًا من الوقفات التي إستخلصناها من تجربة معلم عايش تدريس العربية في مراحل التعليم العام بمختلف أطواره ويدرس حاليًا نحو العربية وصرفها وصوتياتها لطلابه بالجامعةالجزائرية، وأوجز هذه الوقفات فيما يأتي:

1- لا تكتسب اللُّغة إلا بالممارسة والمران والإستخدام المستمر ذلك ما تأكدت منه في تجربتي مع تدريس أنشطة اللغة فالتلاميذ الذين كانوا يحفظون أجزاء من القرآن الكريم ويستمعون أكثر إلى الخطباء أقوى من زملائهم لغويًا، ولذلك ينبغي تشجيع التعلم الذاتي والحث على إستخدام اللغة نطقًا وكتابةً وإسماع التلاميذ نصوصًا أدبية رفيعة وتشجيعهم على الحفظ لعيون الشعر العربي.

2- تشجيع التلاميذ على القراءة الحرة (المطالعة) فالمطالعة تمد الطالب بالثروة اللفظية والتراكيب السليمة والصور البلاغية الجميلة والأخيلة، ذلك أن المطالعة معين لا ينضب يمدُّ الطالب بما يحتاج إليه أثناء تعبيره من حيث الشكل والمضمون.

3- تحقيق وحدة اللغة العربية وعدم الفصل بين الأنشطة اللغوية وإشعار الطالب بمبدأ التكامل فيما يقدم له من قراءة ونحو وبلاغة وصرف ونصوص لتصب كلها في عملية التركيب فيتمكن الطالب من الممارسة الجيدة للغة نطقًا وكتابةً.

4- تعليم النحو العربي في إطار النص وعدم الإسراف في التركيز على طبيعة النحو وإنما ينبغي جعله وسيلة للصيانة من الخطأ، وأن تترك عملية التصحيح النحوي للمراحل الأخيرة من التعليم العام، حتى لا نحد من الإسترسال اللغوي لدى المتعلمين.

5- التركيز على طريقة السماع اللغوي بتشجيع نشاط التعبير الشفوي وفتح نشاطات الحوار والمناقشة داخل القسم بين التلاميذ والمعلم، فالمناقشة الحرة الشفهية تكسب التلاميذ الشجاعة الأدبية وتعلمهم طرح أفكارهم والخوض في غمار المناقشة، وقد تحدث العلماء عن فضل المشافهة والسَّماع في إكساب الملكة اللغوية، وهنا تطرح مسؤولية وسائل الإعلام المرئية والمسموعة للمساهمة في ترشيد اِستعمال اللغة بما تقدمُه من نشرات وتحقيقات ومسلسلات بلغة فصيحة راقية.

6- التكوين المستمر والجيِّد للمعلم، فالمعلم المكون يتمتع بقدرة العطاء وينشئ جيلاً عارفًا قويًا، كما ينبغي أن تتوفر في المعلم القدوةأمام طلابه في الممارسة اللغوية نطقًا وكتابةً، وأن يتقيَّد بذلك تقيدا تامًّا في جميع حركاته وسكناته ويحسن توزيع الوقت واِستغلال الوسائل.

7- الاهتمام بالكتاب المدرسي شكلا ومضمونا فلا بد أن يحوي نصوصا أدبية رفيعة، وأن يُحسنَ تبويب مباحثه وفق الطريقة المقترحة للتدريس فإن في مخالفة الطرق التربوية ما يبعث على النفور من الكتاب وبالتالي يهجره التلميذ ويعرض عنه الأستاذ، كما يَلزم تمثيل الكتاب المدرسي القواعد الرسمية أحسن تمثيل في شكل سلسلة تتدرج عبر سنوات التمدرس تحمل اِجتهادات عدد غير قليل من كبار المعلمين والأساتذة والمربين الذين أثبتوا جدارتهم في التربية والتعليم والذين تتجاوز شهرتهم حدود أماكنهم حتى يحدث الإقبال على الكتاب.

8- اِستغلال العامية التي يأتي بها الطفل من المنزل فهي تمثل ثلاثة أرباع المخزون اللغوي لدى التلميذ والمناهج التربوية تهمل هذا الجانب لذلك ينبغي ترقية عامية الطفل وإيصالها إلى مستوى الفصحى، وأما الكيفية التي تتم بها هذه العملية فإنها تعود إلى مهارة المعلم التربوية وتمكنه اللغوي وهو ما يجب مراعاته في التكوين.

9- إحداث التكامل بين أنشطة اللغة العربية في مراحل التعليم العام فتدريسها مفرعة منفصلة (فرع القراءة . النصوص . النحو . التعبير...) من شأنه أن يحدث خلطًا في التفكير وفوضى في الكسب المعرفي اللغوي.

10- اِنتهاج الطرائق النشيطة في التدريس عن طريق الانتقاء للأفضل منها وذلك بأن يتم اِختيار من كل طريقة إيجابياتها وتلافيسلبياتها، وهناك طرائق عدة يتبناها المعلم مادامت تحقق الأهداف المبتغاة، إذ يجب أن تحدث هذه الطرائق نشاطًا داخل القسم تجعل التلميذ يناقش الدرس حتى يتوصَّل إلى كشف الحقائق بنفسه لا أن تقدم له القواعد والأحكام لقمة سائغة من غير تفكير وجهدٍ.

إن لجوء المعلم إلى الطريقة الإلقائية الصّرْفة وتحمّلَه أعباء الدرس لوحده يقود الطلبة إلى الاتكالية والسلبية والتقاعس والانفعال على حين تبني الطرائق التنقيبية وتكوين مهارات التعلُّم الذاتي يساعد على التعلُّم المستمر ومواكبة روح العصر والتفجُّر المعرفي في عصر العلم والتكنولوجيا»[7]، يتفق المربون أن إسكات الطالب في القسم واِعتماده على ما يقدم له يعوده على المحاكاة العمياء والتقاعس والاتكالية ، وكل ما يتحصل عليه من معلومات معرض للزوال والنسيان بسرعة ما دام لم يبذل مجهودًا في سبيل اِكتشافها ومن هنا كان «الرأي التربوي السائد اليوم في ظل فلسفة الخبرة هو أنه لا سبيل أمام الإنسان لكي يتعلم إلاَّ أسلوب التعلُّم الذاتي»[8].

11- التقويم الجيد: ويقصد بالتقويم تحديد ما حققه المعلم من نجاح في تحقيق الأهداف فبه تشخص الأوضاع وتعرف العقبات والمعوقات بغية تحسين العملية التعليمية ورفع مستواها، وللتقويم أساليب متعددة ينبغي على المعلم اِنتهاجها كما يجب أن يكون مستمراً ومتنوعًا وهادفًا.

الخلاصة:

إن الحرص على تطوير مستوى تعليم اللغة العربية في الجزائر والاِجتهاد في سُبُلِ وطرائق تمكينها للناشئة يعني الوصول إلى تحقيق سيادة اللغة العربية على السَّاحة الوطنية بما يوصلنا إلى الاِرتباط بحضارتنا المجيدة، وتوحيد الجزائريين مع أبناء الأمة العربية وإحداث التفاهم واللقاء الفكري ووحدة المنحى الثقافي وخلق الشخصية الجزائرية العربية المبدعة القادرة على المشاركة في الحضارة الإنسانية والتفاعل معها من منطلق متميز.فالاِنسلاخ عن العربية وتبنِّي لغة الغير يدخل المجتمع في فوضى ثقافية ويحدث تلوثا لغويًا وفكريًا ينعكس بالسَّلب على مجالات التنمية الاِقتصادية والاِجتماعية.

إن قوة اللغة في قوة ناطقيها ومستعمليها فاللغة تلازم الأحياء تقوى بقوتهم وتضعف بضعفهم ولا تعيش على مجهودات الأموات أبدًا، ولئن كان العرب في ماضيهم الزاهر قد وصلوا إلى تلك المكانة العالية من الاجتهاد، وسادت لغتهم تلك السيادة فإن عليهم في عصرنا هذا أن يكونوا مؤمنين بأصالة لغتهم وأن يتخلصوا من الشعور بالدونية تجاه لغتهم وأمتهم.

وإن تطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأمة يسهم إلى حدٍّ بعيد في تطوير اللغة فقد أثبتت الأحداث التاريخية أن اللغة تتطور بتطور الحياة الاجتماعية للأمة وترتقي برقي حضارتهم.

وعلينا أن نعلم أن اللغة العربية إن حظيت بالرعاية والاهتمام في مدارسنا سوف يستطيع أبناؤنا دخول ميدان العلم والمعرفة بقوة، ولن تعوقهم العراقيل ما داموا يفكرون وفق ثقافتهم ولغة أجدادهم شأنهم في ذلك شأن جميع أمم الأرض التي تدرس بلغاتها وتفكر بها فالإبحار في العلوم والدخول في عصر التقدم لا يأخذ مداه ولا يصل إلى منتهاه إلاَّ إذا قام به أبناء الأمة مستخدمين لسانهم الأصيل.

هوامش البحث:

1- ابن خلدون، المقدمة، 2/ 48.

2- الدكتور محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1989، ص71.

3- عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مجلة اللسانيات . الجزائر، العدد 4، السنة 1974، ص73.

4- صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللغة العربية، مطبوعات جامعة منشوري قسنطينة، 1999، ص72.

5- مهدي المخزومي، نحو لغة عربية سليمة، وزارة الثقافة والفنون، العراق . بغداد، 1978، ص37.

6- الدكتور محمد السيد، في قضايا اللغة التربوية، وكالة المطبوعات، الكويت، ص78.

7- الدكتور محمد السيد، شؤون لغوية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1989، ص175.

8- نفسه، ص176.